النص الكامل

مغامرات

شيرلوك هولمز



٢١

تأليف:
آرثر كونان دويل

لُغز المَريض المُقيم

بالرسومات الأصلية



الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم



ذكريات
شيرلوك هولمز
(٩)

لُغز المَريض المُقيم

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد آب (أغسطس) ١٨٩٣

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الأجيال
للترجمة والنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوِير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (٩/١٩١٤-٥/١٩١٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٠/١٩٢١-٤/١٩٢٧) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

لُغز المَريض المُقيم

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

حين أُلقي نظرة على سلسلة المذكّرات -التي أسعى من خلالها إلى توضيح بعض المميّزات العقلية لصديقي شيرلوك هولمز- يذهلني مدى الصعوبة التي أواجهها في اختيار الأمثلة التي تحقّق الغرض الذي أسعى إليه من كل النواحي؛ ففي بعض القضايا التي قام فيها هولمز بعمل مبهر في التحقيق والتحليل المنطقي كانت الحقائق نفسها بسيطة جداً أو شائعة جداً بحيث لا أستطيع أن أشعر بمبرّرات عرضها على الناس، ومن ناحية أخرى حدث كثيراً أن كان مهتمّاً بقضايا كانت حقائقها ذات خصائص مثيرة، ولكن كان نصيب هولمز في تحديد أسبابها أقلّ وضوحاً مما أتمنّاه وأنا أكتب قصص مغامراته.

وربما كان الدور الذي لعبه صديقي في القضية التي سأكتب قصتها الآن لم يُظهِر قدراته ومهاراته التحليلية بما فيه الكفاية، وبالرغم من ذلك فقد كان تسلسل أحداث القضية مذهلاً بحيث

لم أستطع حذفها من المذكّرات.

كان يوماً ممطراً كئيباً من أيام شهر تشرين الأول (أكتوبر) حين قال لي هولمز: إنه جوّ غير صحّي يا واطسون، ولكن المساء حمل معه بعض النسمات، فما رأيك بنزهة في شوارع لندن؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ ydney Paget 1893

كنت قد مللت غرفتنا الصغيرة فوافقت بسعادة. خرجنا فتجوّلنا معاً لنحو ثلاث ساعات نشاهد تقلّبات الحياة وتغيراتها وهي تأتي وتذهب عبر شارعَي فليت وستراند، في حين سحرني كلام هولمز بمراعاته الحادّة للتفصيلات وقوّة استدلاله الخفيّة، فلم نَعُد إلى شارع بيكر ثانية إلا في الساعة العاشرة، حيث وجدنا عربة تنتظرنا عند بابنا.

قال هولمز: آه، يبدو أنه طبيب، ممارس عامّ كما ألاحظ، ولم يمضِ عليه وقت طويل في العمل وإن كان قد أنجز الكَثير، وأتصور أنه قد جاء لاستشارتنا. من حسن الحظ أننا عدنا في الوقت المناسب.

كنت مطّلعاً على أساليب هولمز بشكل كافٍ مكّنني من تتبّع افتراضاته المنطقية؛ فقد توصل إلى استنتاجه السريع -كما توقعت- بملاحظة حالة الآلات الطبية المختلفة الموجودة في سلّة معلّقة داخل العربة تحت ضوء المصباح، كما دلّ وجود ضوء في نافذتنا على أن هذه الزيارة المتأخرة كانت بالفعل لنا.

تبعت هولمز إلى مسكننا وأنا أشعر ببعض

الفضول لمعرفة السبب الذي جاء بطبيب زميل إلينا في هذه الساعة المتأخرة، وحين دخلنا الغرفة أبصرنا رجلاً شاحباً ذا وجه مخروطيّ وشعر أشقر وقد جلس على مقعد قريب من المدفأة. لم يكن عمره ليزيد عن أربعة وثلاثين عاماً، ولكن ملامحه المنهَكة ومظهره الغير الصحّي كانا يدلاّن على أن الحياة قد استنزفت قوّته وسرقت شبابه. كان أسلوبه انفعالياً وكان خجولاً كرجل محترَم حسّاس، وحين وضع يده الرقيقة الشاحبة على المدفأة لينهض وجدتُها تشبه يد الفنّان لا يد الجرّاح، أما ملابسه فكانت قاتمة، كان يرتدي معطفاً طويلاً أسود اللون يمتد حتى الركبة وبنطالاً داكناً مع بعض اللون في رباط عنقه.

قال هولمز بسرور: مساء الخير أيها الطبيب، يسرّني أن أرى أنك لم تنتظرنا إلا بضع دقائق قليلة فقط.

- لقد تحدثتَ مع حوذيّ عربتي إذن؟

- لا، بل عرفت من هذه الشمعة على الطاولة. أرجو أن تجلس ثانية في مقعدك وتخبرني كيف أستطيع خدمتك.

قال زائرنا: أنا الدكتور بيرسي تريفليان، وأعيش في المبنى رقم ٤٠٣ في شارع بروك.

سألته قائلاً: ألست أنت مؤلّف تلك الدراسة عن الأمراض العصبية الغامضة؟

ظهرت السعادة على وجهه وتدفّق الدم إلى خديه الشاحبين حين وجدني أعرف عمله وقال: من النادر جداً أن أسمع عن هذا الكتاب حتى إنني ظننت أنه انتهى تماماً، فناشري أعطاني بياناً محبطاً جداً عن مبيعاته. هل أفهم من ذلك أنك طبيب؟

- جرّاح متقاعد من الجيش.

- الأمراض العصبية كانت هوايتي دائماً، وأتمنى أن أجعلها تخصّصي في المستقبل، ولكن يجب على المرء أن يأخذ ما يستطيع الحصول عليه أولاً. هذا أمر ثانوي على أية حال، فأنا أقدّر أن وقتك ثمين يا سيد هولمز، والحقيقة أن سلسلة من الأحداث الغريبة قد وقعت مؤخّراً في منزلي في شارع بروك، والليلةَ بات من المستحيل أن أنتظر ساعة أخرى دون طلب مساعدتك ونصيحتك.

جلس شيرلوك هولمز فأشعل غليونه ثم قال:

سأقدّم لك المساعدة والنصيحة بكل رحابة صدر، لكن أرجو منك أولاً أن تقدم إليّ وصفاً مفصّلاً عن الأحداث التي تزعجك.

قال الدكتور تريفليان: واحد أو اثنان من هذه الأمور تافه جداً لدرجة أنني أخجل من ذكره، ولكن الأمر غير قابل للتفسير والاتجاه الأخير الذي سارت فيه الأحداث معقد جداً، ولذلك سأقصّه عليك لتحكم بنفسك على ما هو مهم وما هو غير مهم.

بدايةً أنا مرغَم على قول شيء لزميل مهنتي. أنا خرّيج جامعة لندن كما تعرف، وأرجو أن لا تظن أنني أثني على نفسي بإفراط لو قلت إن أساتذتي وأنا طالب قد اعتبروا أن لي مستقبلاً واعداً جداً، وبعد أن تخرجت بقيت على تكريس جهودي للبحث، وشغلت وظيفة صغيرة في مستشفى كنْغز كوليج، وكنت محظوظاً لأن بحثي في علم أمراض الإغماء التخشّبي أثار اهتماماً كبيراً، وفزت أخيراً بجائزة بروس بينكرتون وبميدالية عن بحث إصابات الأعصاب الذي أشار إليه صديقك، ويجب أن أشير الآن إلى أن توقعي في ذلك الوقت

كان بأن أمامي مستقبلاً مميَّزاً.

كانت العقبة الكبرى أمامي هي حاجتي إلى المال، وسوف تفهم بسرعة أن الإخصائي الذي يطمح في التقدّم يكون مرغَماً على أن يبدأ في واحد من الشوارع الاثني عشر في منطقة ساحة كافنديش، وكلها تتطلب إيجارات باهظة ونفقات للتأثيث بالإضافة إلى النفقات التمهيدية، ويجب أن يكون المرء قادراً على أن يعول نفسه لعدة سنوات وأن يستأجر عربة أنيقة وحصاناً. كان هذا فوق طاقتي، فتمنيت أن أتمكن بالاقتصاد من توفير ما يكفي لفتح عيادتي الخاصة خلال عشرة أعوام. وفجأة وقع أمر فتح أمامي آفاقاً جديدة.

كانت تلك هي زيارة سيد محترَم لم أعرفه من قبل اسمه بلسِنْغتون، حيث جاء إلى غرفتي صباح أحد الأيام ودخل في حديث العمل مباشرة؛ قال: هل أنت بيرسي تريفليان ذو السيرة المِهَنية المميّزة والذي فاز بجائزة عظيمة مؤخَّراً؟

أومأت بالإيجاب، فاستمرّ قائلاً: أجبني بصراحة وستجد ذلك في مصلحتك. أنت تملك كل المهارة التي قد تجعلك رجلاً ناجحاً، فهل

تملك حسن التصرف؟

لم أتمالك نفسي من الابتسام بسبب فظاظ السؤال وقلت: أظن أنني أملك منه قدراً كافياً.

- هل لديك عادات سيّئة؟ هل تميل إل الشراب مثلاً؟

صحت قائلاً: بالطبع لا يا سيدي!

- ممتاز، كل هذا ممتاز، ولكني مضطرّ إل سؤالك: لماذا لم تفتح عيادة وأنت تتمتع بكل هذ الميزات إذن؟

هززت كتفَيّ فقال بطريقته النشطة: هيّا، هيّا، إنها نفس القصة القديمة؛ لديك المؤهّلات العقلي ولكن دون الإمكانيات المادية، أليْس كذلك؟ ماذ ستقول إذن لو أخبرتك أنني سأساعدك في أن تبد في شارع بروك؟

حملقت إليه بذهول فصاح قائلاً: هذا الأمر لصالحي وليس لأجلك. سأكون صريحاً معك، ولو ناسبك الأمر فسوف يناسبني تماماً أنا أيضاً. أملك بضعة آلاف وأريد استثمارها، أتفهم؟

وأعتقد أنني سأستثمرها فيك.

شهقت قائلاً: ولكن لماذا؟!

- حسناً، إنها مثل أية مضاربة مالية أخرى، وإن كانت أكثر أماناً من معظمها.

- ما الذي عليّ فعله إذن؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

- سأخبرك. سوف أستأجر المنزل وأتولى تأثيثه، وسأدفع للخادمات وأدير المكان، وكل ما عليك فعله هو أن تجلس على مقعدك في غرفة الكشف، وسأعطيك المال لمصاريفك الشخصية وكل شيء، وبعد ذلك تعطيني ثلاثة أرباع ما تكسب وتحتفظ بالربع الباقي.

كان هذا هو العرض الغريب الذي قدّمه لي ذلك الرجل يا سيد هولمز. ولن أزعجك بوصف تفصيلات مفاوضاتنا ومساوماتنا، فقد انتهى الأمر بانتقالي إلى الموقع الجديد، وبدأت بالعمل في العيادة بنفس الشروط التي اقترحها، وأتى هو بنفسه للإقامة على أنه «مريض مقيم»، فقد كان قلبه ضعيفاً كما يبدو ويحتاج إلى إشراف طبّي مستمر، فحوّل أفضل غرفتين في الشقة إلى غرفة جلوس وغرفة نوم له!

لقد كان رجلاً ذا عادات غريبة، فهو يتجنب الصحبة ولا يخرج إلا نادراً، ولكنه كان شديد الانتظام فيما يتعلق بأمر واحد؛ فقد كان يدخل إلى غرفة الكشف كل مساء في الموعد نفسه ليفحص الحسابات ويترك لي خمسة شلنات وثلاثة

بنسات من كل جنيه أربحه، ثم يأخذ الباقي ليحفظه في خزنة في غرفة نومه.

ويمكنني القول بثقة إنه لم يندم على مخاطرته، فقد نجحتُ منذ البداية؛ فبفضل بعض الحالات القليلة الناجحة، بالإضافة إلى سمعتي في المستشفى، صرت في المقدّمة بسرعة، وقد جعلت منه رجلاً غنياً خلال هذه السنوات القليلة الماضية.

هذا كل ما يختصّ بعلاقتي بالسيد بلسنغتون، ويبقى فقط أن أخبرك بما حدث ودفعني إلى الحضور إليك الليلة من منزل السيد بلسنغتون. منذ عدّة أسابيع والسيد بلسنغتون في حالة هياج كما بدا لي، وقد تحدّث عن سرقة ما حدثت في الطرف الغربي من المدينة، وبدا منفعلاً بغير ضرورة بسبب هذه السرقة، كما أعلن أنه يجب أن لا يمرّ علينا يوم آخر دون وضع مزاليج أقوى على النوافذ والأبواب.

وقد استمرّ لأسبوع على هذه الحالة من القلق، فقد كان ينظر دائماً من النوافذ، وتوقّف عن نزهة المشي القصيرة التي كانت تسبق عشاءه

دائماً. وقد خطر لي من تصرفاته أنه في حالة هلع شديد من شيء ما أو شخص ما، ولكنه انقلب إلى رجل شرس جداً حين سألته عن الأمر لدرجة أنني اضطررت إلى التخلي عن بحث الموضوع. وبمرور الوقت بدأت مخاوفه تختفي فاستعاد عاداته القديمة، حتى حدث شيء جديد أحاله إلى حالة الانهيار التي هو فيها الآن. منذ يومين تلقّيت خطاباً لم يحمل أي عنوان أو تاريخ، وها هو نصّه:

> نبيل روسي يعيش الآن في إنكلترا يسرّه أن يستفيد من المساعدة الطبية للدكتور بيرسي تريفليان، فهو ضحية لمرض الإغماء التخشّبي منذ سنوات، وهو المرض الذي يشتهر الدكتور تريفليان بأنه خبير فيه، وهو يقترح أن يزور العيادة في الساعة السادسة والربع غداً مساء إذا كان الدكتور مستعداً لاستقباله عندئذ.

أثار هذا الخطاب اهتمامي العميق لأن المشكلة الرئيسية في دراسة مرض الإغماء التخشّبي هي ندرته، فلا بد أن تصدّق إذن أنني كنت في غرفة الكشف حين أدخل مساعدي

المريضَ الروسي إلى الغرفة في الموعد المحدَّد.

كان رجلاً عجوزاً نحيلاً رزيناً، وقد جعله شكله المألوف بعيداً عن الشكل الذي نتخيله لنبيل روسي، ولكنني ذهلت أكثر بمظهر رفيقه الذي كان شاباً طويلاً بالغ الوسامة ذا وجه داكن حادّ القسمات وجسم مفتول العضلات. كان يضع يده تحت ذراع الرجل العجوز عندما دخلا، ثم ساعده



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

ليجلس على الكرسي بحنان لا يتوقعه المرء من رجل بهذه الهيئة.

قال لي بلغة إنكليزية فيها لثغة بسيطة: أعتذر عن دخولي يا دكتور، فهذا أبي وصحّته ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي.

أثّر قلقه على والده في نفسي فقلت: لعلك تريد البقاء في أثناء الفحص؟

صاح بلهجة فيها بعض الخوف: محال، سيكون هذا مؤلماً لي؛ لا أحب رؤية أبي في إحدى نوباته المرعبة، فجهازي العصبي حسّاس بشكل خاص. لو سمحت لي فسوف أنتظر في غرفة الانتظار حتى تنتهي من فحصه.

وافقت على ذلك بالطبع، فانسحب الشاب، ثم ناقشت المريض في حالته وأخذت بعض الملاحظات المرهقة؛ فالرجل لم يكن على درجة كبيرة من الذكاء وكانت إجاباته غريبة في معظم الأحيان، وقد قدّرت أن سبب ذلك هو ضعفه بلغتنا. وفجأة وفيما أنا أكتب توقّف عن الإجابة عن أسئلتي، وحين نظرت إليه صُدمت برؤيته متصلّباً في

كرسيه وقد تصلّب وجهه وصارت نظراته جوفاء؛ لقد وقع في قبضة المرض من جديد.

للوهلة الأولى كانت مشاعري مشاعرَ شفقة ورعب، لكنني سأعترف بأنها قد تحولت سريعاً إلى نوع من الرضا المهني؛ فأخذت ملاحظات من نبض المريض ودرجة حرارته ثم اختبرت تصلّب عضلاته وتفحّصت ردود أفعاله، فلم أجد أي عَرَض جديد يختلف عمّا كنت أعرفه بخبرتي السابقة. ولما كنت قد حصلت في الماضي على نتائج طيبة في مثل هذه الحالات باستنشاق دواء اسمه أميل النيترات، فقد بدت هذه الحالة أمامي فرصة طيبة لأجرّب فعاليته. وكانت زجاجة الدواء في الدور السفلي في معملي، فتركت مريضي في مقعده وأسرعت لأحضرها، ولكنني تأخرت قليلاً في العثور عليها، لنقُل خمس دقائق، وعندما عدت... يمكنك أن تتخيل ذهولي حين وجدت الغرفة خالية والمريض قد اختفى!

كان تصرّفي الأول -بالطبع- هو البحث في غرفة الانتظار، فلم أجد الابن أيضاً! كان باب الصالة مغلَقاً ولكنه غير مُقفَل، أمّا المساعد

الذي يُدخِل المرضى فهو جديد وليس سريعاً بأي حال من الأحوال، فهو ينتظر في الأسفل حتى أدقّ له الجرس في غرفة الكشف فيسرع ليدلّ المرضى على باب الخروج، ولم يكن قد سمع شيئاً. وهكذا بقي الأمر لغزاً غامضاً، وعندما جاء السيد بلسنغتون من نزهته بعد ذلك بقليل لم أخبره بشيء عن الموضوع، لأنني كنت قد بدأت مؤخَّراً بتخفيف التعامل معه قدر المستطاع.

حسناً، لم أظن أنني سأرى الروسي وابنه مرة أخرى، فتخيّل دهشتي عندما دخلا إلى غرفة الاستشارة في نفس الموعد هذا المساء تماماً كما فعلا من قبل!

قال مريضي: أشعر أنني مدين لك بالكثير من الاعتذارات بسبب رحيلي المفاجئ أمس يا دكتور.

قلت: أعترف بأن الأمر قد أثار دهشتي الكبيرة.

علّق قائلاً: حسناً، الحقيقة أنني عندما أفيق من هذه النوبات يكون عقلي مشوّشاً وأنسى كل

ما حدث قبل النوبة، فعندما أفقت أمس في غرفة غريبة -كما بدا لي- وأنت غائب اتجهتُ إلى الشارع وأنا في حالة ذهول.

قال الشاب: أما أنا فحين رأيت أبي يعبر باب غرفة الانتظار اعتقدت أن الاستشارة قد انتهت، ولم أدرك حقيقة ما حدث إلا بعد أن وصلنا إلى المنزل.

قلت ضاحكاً: حسناً، لم يحدث أي ضرر



رسم و هـ هايد ١٨٩٣ W. H. Hyde 1893

سوى أنكما أثرتما حيرتي الشديدة، فلو سمحت إذن يا سيدي ادخل إلى غرفة الانتظار، فيسعدني استكمال الاستشارة التي انتهت نهاية مفاجئة أمس.

بحثت مع العجوز المحترَم أعراضَ مرضه لمدّة نصف ساعة، وبعد ذلك وصفت الدواء، ثم رأيته يغادر متكئاً على ذراع ابنه.

أخبرتكم بأن السيد بلسنغتون عادة ما يختار هذه الساعة من اليوم لرياضته اليومية، وقد جاء بعد مغادرتهما بقليل واتجه إلى الدور العلوي، وبعد قليل نزل مهرولاً واندفع إلى غرفة الكشف كرجل أطار الخوفُ صوابَه! صاح قائلاً: من دخل إلى غرفتي؟

قلت: لا أحد.

صرخ قائلاً: كذب! اصعد وانظر بنفسك.

تغاضيت عن فظاظة أسلوبه وصعدت معه إلى غرفته، وهناك أشار إلى عدة آثار أقدام فاتحة اللون كانت على السجّادة وصاح قائلاً: هل تظن أن هذه آثار أقدامي؟

كانت الآثار أكبر بكثير من قدميه بالتأكيد، ومن الواضح أنها آثار حديثة؛ لقد أمطرت السماء بغزارة بعد ظهر هذا اليوم كما تعرف، وحيث إنه لا يأتي إلى المنزل إلا مرضاي فلا بدّ أن ما حدث هو أن الرجل الذي كان في غرفة الانتظار قد استغلّ انشغالي مع العجوز وقام لسبب مجهول بالصعود إلى غرفة مريضي المقيم، وبالرغم من أنه لم يأخذ أو يلمس أي شيء إلا أن آثار الأقدام تُثبِت أن



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

الاقتحام كان حقيقة لا شكّ فيها.

بدا السيد بلسنغتون منفعلاً أكثر مما توقعت، رغم أن ما حدث كان كافياً لإثارة قلق أي شخص بالطبع. جلس يبكي على أحد المقاعد واستطعت بصعوبة حثّه على الكلام المتماسك، وكان هو مَن اقترح أن آتي إليك، وبالطبع قد وافقت على ذلك في الحال لأن الواقعة غريبة جداً بالتأكيد، بالرغم من أنه يبالغ في خطورتها. فلو أتيت معي في عربتي فقد تتمكن من تهدئته على الأقل، بالرغم من أنني أشك في أنك ستنجح في تفسير هذه الحادثة الغير العادية.

استمع شيرلوك هولمز إلى هذه الحكاية الطويلة بإمعان دلّني على أنها قد أثارت اهتمامه، وعندما أنهى زائرنا كلامه قفز هولمز واقفاً دون أي كلمة، ثم أعطاني قبعتي والتقط قبعته، وبعد ذلك تبع الدكتور تريفليان. وبعد ربع ساعة توقّفنا أمام باب الطبيب في شارع بروك، وهو أحد تلك المنازل البسيطة الكئيبة مثل معظم عيادات الطرف الغربي من لندن. أدخلَنا بواب صغير الحجم، وبدأنا على الفور صعود الدرجات العريضة

المفروشة بالسجاد.

لكن في أثناء صعودنا حدث ما جعلنا نتوقف فجأة، فقد انطفأ النور في الأعلى وانطلق صوت حاد مرتعش قائلاً: معي مسدّس، أحذّرك، إذا اقتربت فسوف أطلق النار.

صاح الدكتور تريفليان: لقد تجاوز الأمر الحدود يا سيد بلسنغتون.

قال الصوت مع زفرة ارتياح عميقة: حمداً لله، هذا أنت إذن يا دكتور؟ ولكن هل تأكدت من شخصية هذين السيدين؟

أدركنا أنه كان يراقبنا في الظلام بدقّة، وقال الصوت أخيراً: حسناً، حسناً، الأمر على ما يرام؛ يمكنكم الصعود، وأنا أعتذر إذا كانت احتياطياتي الأمنية قد أزعجتكم.

أضاء نورَ الدرَج وهو يتكلم، فرأينا أمامنا رجلاً له مظهر متميز يدلّ -بالإضافة إلى نبرة صوته- على أن أعصابه محطّمة. كان سميناً جداً، وإن بدا أنه كان أسمن في وقت ما، فقد تهدّل جلد وجهه في تجاعيد مترهّلة مثل خدود كلب الصيد.

وكان لونه شاحباً وقد وقف شعره الخفيف الأشقر من الانفعال الشديد، وكان يحمل المسدّس في يده ولكنه دفع به إلى جيبه حين اقتربنا.

قال: مساء الخير يا سيد هولمز، أنا ممتنّ كثيراً لقدومك إلى هنا، فلا أحد يحتاجك أكثر مني. أظن أن الدكتور تريفليان قد أخبرك بالاقتحام غير المبرَّر لغرفتي.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ — Sydney Paget 1893

قال هولمز: تماماً. مَن هذان الرجلان يا سيد بلسنغتون؟ ولماذا يريدان إيذاءك؟

قال المريض المقيم بعصبية: حسناً، حسناً، من الصعب معرفة ذلك بالطبع، لا يمكن أن تتوقع مني الإجابة يا سيد هولمز.

- أتعني أنك لا تعرف؟

- ادخل هنا لو سمحت، أرجو أن تتفضل بالدخول.

قادنا إلى غرفة نومه التي كنت واسعة وذات فراش مريح، ثم قال وهو يشير إلى صندوق كبير أسود عند نهاية سريره: أترى ذلك؟ لم أكن قط رجلاً شديد الثراء يا سيد هولمز، ولم أقم إلا باستثمار واحد في حياتي كما سيخبرك الدكتور تريفليان، ولكنني لا أؤمن برجال المصارف ولا أثق بأحدهم أبداً، وهكذا فالقليل الذي أملكه أضعه في هذا الصندوق، وليبقَ الأمر سراً بيننا يا سيد هولمز. ولذلك يمكنك أن تتخيل مدى انزعاجي عندما اقتحم هذان الغريبان غرفتي.

نظر هولمز إلى بلسنغتون بطريقته المتسائلة،

ثم هزّ رأسه وقال: لا يمكنني مساعدتك إذا كنت تحاول خداعي.

- ولكنني أخبرتك بكل شيء!

استدار هولمز على عقبيه ممتعضاً وقال: عمت مساء يا سيد تريفليان.

صاح بلسنغتون بصوت كسير: ولن تعطيني أي نصيحة؟!

- نصيحتي لك هي أن تقول الحقيقة.

* * *

بعد دقيقة كنا في الشارع متجهَين إلى المنزل، وكنا قد عبرنا شارع أكسفورد وقطعنا نصف الطريق في شارع هارلي قبل أن أستطيع انتزاع كلمة من هولمز. قال أخيراً: أنا آسف لإحضارك إلى هذه المهمّة الحمقاء يا واطسون، ولكنها قضية مثيرة للاهتمام في أعماقها على أية حال.

اعترفت قائلاً: لم أفهم منها أي شيء.

- حسناً، من الواضح وجود رجلين (وربما

أكثر) مصمّمين على إزعاج هذا الرجل بلسنغتون لسبب ما، ولا أشكّ أدنى شكّ في أن الشاب قد اقتحم غرفة بلسنغتون في المرتين الأولى والثانية في حين شغل شريكه الطبيبَ بطريقة عبقرية حتى لا يتدخل.

- والمرض؟

- محاكاة خادعة للأعراض يا واطسون، بالرغم من أنني لم أجرؤ على التلميح بهذا لطبيبنا الاختصاصي، إلا أنه من أسهل الأمراض التي يمكن تقليدها، حتى إنني فعلت ذلك بنفسي ذات مرة.

- وبعد ذلك؟

- كان بلسنغتون خارج المنزل في المرتين بالمصادفة البحتة، وكان سبب اختيارهما لهذا التوقيت الغير الاعتيادي بالذات للاستشارة واضحاً، فقد أرادا أن لا يكون في غرفة الانتظار أحد، ولكن تصادف -على أية حال- أن هذا التوقيت قد تزامن مع نزهة بلسنغتون، مما يُظهِر عدم درايتهما بعاداته اليومية. فلو كانا يريدان المال

فقط لحاولا العثور عليه على الأقل، وبالإضافة إلى ذلك أستطيع معرفة ما إذا كان الرجل خائفاً على نفسه أو على ماله من عينيه. من غير المعقول أن هذا الرجل قد صنع مثل هذين العدوَّين الحقودَين دون معرفة منه، ولذلك أعتبرُ أن من المؤكَّد أنه يعرف هذين الشخصين ويكتم الأمر لأسباب تخصّه، ومن المحتمَل إذن أن يكون أكثر صراحة غداً.

قلت مقترحاً: ألا يمكن أن يكون في المسألة احتمال آخر بديل، وإن كان كريهاً بلا شك ولكنه ما يزال معقولاً؛ ألا يمكن أن تكون قصة المريض الروسي وابنه كلها من اختلاق الطبيب الذي يريد دخول غرفة بلسنغتون لسبب أو لآخر؟

رأيت في ضوء مصباح الشارع أن هولمز يبتسم مسروراً من هذا التحول العبقري في أفكاري وقال: يا صديقي العزيز، لقد كان هذا من الحلول الأولى التي خطرت على بالي، ولكنني سرعان ما تأكدت من قصة الطبيب؛ فقد ترك ذلك الشاب آثاراً لأقدامه على سجّادة الدرَج مما جعلني في غِنىً عن رؤية تلك الآثار التي تركها في الغرفة،

وحين أُخبرك بأن مقدّمة حذاء الشاب مستقيمة الشكل بدلاً من الشكل المدبَّب لحذاء بلسنغتون وأن حذاءه أطول ببوصة وثلث من حذاء الطبيب، حين أُخبِرك بهذا ستدرك أنه لا يمكن أن يكون للشكّ مجال بأنه شخص آخر، لا بلسنغتون ولا الطبيب. حسناً، لنترك الأمر الآن، وسوف أكون في غاية الدهشة إذا لم نسمع شيئاً من أصحابنا في شارع بروك غداً صباحاً.

* * *

تحققت نبوءة هولمز سريعاً بشكل دراميّ؛ ففي الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي ومع أول شعاع من ضياء الصباح وجدته واقفاً بجوار سريري مرتدياً ملابس النوم وهو يقول: في الخارج عربة بانتظارنا يا واطسون.

- ما الأمر؟

- إنها قضية شارع بروك.

- هل من أخبار جديدة؟

قال وهو يفتح الستائر: أخبار مأساوية ولكن

غامضة. انظر إلى هذه، إنها ورقة من مفكّرة تقول كلماتها: «بربك تعالَ حالاً، ب ت».

عرضها عليّ وهو يكمل قائلاً: وقد كُتبت بخط رديء وبقلم الرصاص؛ لقد كان صديقنا الطبيب في وضع صعب حين كتبها. هيا يا صديقي العزيز، إنها حالة طارئة.

استغرقت رحلتنا إلى منزل الطبيب نحو ربع ساعة، وحين وصلنا اندفع مسرعاً ليقابلنا وعلى وجهه أمارات الرعب! صاح قائلاً وهو يضع يديه على جبينه: يا إلهي، يا للفظاعة!

- ماذا حدث؟

- لقد انتحر بلسنغتون!

صفر هولمز في حين أكمل الطبيب: نعم، لقد شنق نفسه في أثناء الليل!

دخلنا إلى المنزل، وتقدّمَنا الدكتور إلى ما بدا أنه غرفة الانتظار ثم صاح قائلاً: لا أعرف ماذا أفعل! رجال الشرطة في الدور العلوي الآن، وقد صدمني الأمر صدمة فظيعة.

- متى اكتشفت الأمر؟

- عندما دخلَت الخادمة في الساعة السابعة لتأخذ إليه كوب الشاي -كعادته كل صباح- وجدَت المسكين معلَّقاً في وسط الغرفة. يبدو أنه قد ربط الحبل في الخُطّاف الذي نستعمله لتعليق المصباح الثقيل ثم قفز من فوق الصندوق نفسه الذي دلنا عليه بالأمس.

وقف هولمز مفكّراً بعمق لنحو دقيقة كاملة، ثم قال أخيراً: أريد أن أصعد وأنظر في الأمر بعد إذنك.

صعدنا وتبعَنا الطبيب، وحين دخلنا غرفة النوم واجَهْنا منظراً مخيفاً. لقد تحدثت من قبل عن مدى ترهّله، وقد تضخّم هذا الانطباع عندما تدلّى من الخُطّاف فبدا مظهره غيرَ بشري! لقد طالت رقبته فبدت مثل رقبة الدجاجة المسلوخة، على النقيض من سائر جسمه الذي زاد بدانة وضخامة، وكان مرتدياً رداء نومه الطويل فقط وقد برز من تحته كاحلاه المنتفخان وقدماه الغليظتان!

بجوار الرجل الميت وقف مفتّش شرطة أنيق

يدوّن في مفكرة جيبه بعض الملاحظات، وحين دخل صديقي قال بودّ: مرحباً يا سيد هولمز، تسرّني رؤيتك.

أجابه هولمز: صباح الخير يا لانر، أنا متأكد أنك لن تعتبرني دخيلاً. هل سمعت عن الأحداث التي أدّت إلى هذا الأمر؟

- نعم، سمعت بعضها.

- هل كوّنت أي رأي؟

- لقد فقد الرجل صوابه من الخوف كما فهمت، فقد نام في سريره لوقت طويل كما يظهر من الأثر العميق على السرير، وبما أن الساعة الخامسة صباحاً هي الساعة الأكثر شيوعاً للانتحار فهي الساعة التي انتحر فيها على الأغلب، وهكذا يبدو الأمر متعمَّداً.

قلت: أظنّ أنه قد مات منذ نحو ثلاث ساعات نظراً إلى درجة تصلب عضلاته.

سأل هولمز لانر: هل لاحظت شيئاً غريباً في هذه الغرفة؟

فقال المفتش: لقد وجدت مفكاً وبعض المسامير على حامل مغسلة اليدين، كما يبدو أنه قد دخّن بشراهة في أثناء الليل أيضاً، فها هي أربعة أعقاب لفائف التقطتها من المدفأة.

قال هولمز: حسناً، أحصلت على المِبسم؟

- لا، لم أجده.

- علبة لفائف إذن؟

- نعم، كانت في جيب معطفه.

فتحها هولمز واشتمّ رائحة اللفافة الوحيدة الموجودة بها ثم قال: إنها من نوع الهافانا، نوع غريب يستورده الهولنديون من مستعمراتهم الهندية الشرقية ويُلَفّ دائماً بالقشّ، وهي أرفع بالنسبة إلى طولها من أي نوع آخر.

التقط هولمز أعقاب اللفائف الأربع وفحصها بعدسة جيبه ثم قال: لقد استُخدم المِبسم في تدخين اثنتين فقط، أمّا الأخريان فقد دُخّنتا دونه، كما تم قطع نهاية اثنتين بسكين غير حاد وقُضمت نهاية اثنتين بمجموعة ممتازة من الأسنان. إنه ليس

انتحاراً يا سيد لانر، إنها عملية قتل مخطَّطة بمكر شديد وبوحشية كبيرة.

صاح المفتش: مستحيل!



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

- لماذا؟

- لماذا يقتل أيٌّ من الناس شخصاً بشنقه بهذه الطريقة؟

- هذا ما يجب علينا اكتشافه.

- كيف تمكّنوا من الدخول؟

- من الباب الأمامي.

- لقد كان مغلَقاً بالمزلاج في الصباح.

- أُغلقَ إذن بعد انصرافهم.

- كيف عرفت؟

- لقد رأيت آثارهم. اسمح لي بلحظة لعلي أستطيع إعطاءك المزيد من المعلومات عن الأمر.

اتجه هولمز إلى الباب ثم أدار القفل ليفحصه بطريقته المنظّمة، وبعد ذلك أخرج المفتاح الذي كان في الجهة الداخلية من الباب وتفحّصه أيضاً، كما فحص السرير والسجّادة والكراسي والمدفأة كذلك، بالإضافة إلى الجثّة والحبل كل على حدة، حتى أعلن عن رضاه أخيراً، وقام بمساعدتي أنا

والمفتش بقطع الحبل وإنزال الجسم التعِس لنمدّده على السرير بشكل محترم.

سأل قائلاً: ماذا عن هذا الحبل؟

قال الدكتور تريفليان وهو يسحب لفّة حبال من تحت السرير: لقد قُطع من هذه اللفة، فقد كان بلسنغتون يخاف من النار بشكل مَرضيّ، ولهذا كان يحتفظ دائماً بهذا الحبل لكي يستخدمه في الهروب من النافذة إذا اشتعلت النار في الدرَج.

قال هولمز بحرص: لقد وفّر ذلك عليهم المشقّة. نعم، الوقائع الحقيقية في غاية البساطة، ولسوف يدهشني أن لا أتوصل بعد ظهر اليوم إلى أسباب ما حدث. سآخذ صورة بلسنغتون التي أراها على رفّ المدفأة لأنها يمكن أن تساعدني في تحقيقاتي.

صاح الطبيب: ولكنك لم تخبرنا بشيء!

قال هولمز: آه، لا شكّ في تتابع الأحداث؛ ثلاثة أشخاص يشتركون في الأمر، الشاب والعجوز وشخص ثالث لا أملك أي دليل على هُويّته، أما أول اثنين فلا أحتاج إلى القول بأنهما نفس الاثنين

اللذين تنكّرا في شخصية المريض الروسي وابنه، ولذلك نستطيع الحصول على وصف كامل لهما، وقد أدخلهما إلى المنزل شريك لهما، فلو سمحت لي أن أعرض عليك النصيحة -أيها المفتش- فستكون أن تقبض على البوّاب الذي بدأ في العمل هنا مؤخّراً كما فهمت.

قال الدكتور تريفليان: لم نستطع العثور على هذا العفريت الصغير... الخادمة والطباخ ما زالا يبحثان عنه.

هزّ هولمز كتفيه وقال: لقد قام بدور غير صغير في هذه الأحداث، فقد صعد الثلاثة الدرَج على أصابع الأقدام، كان العجوز في المقدّمة ومن بعده الشاب ثم الرجل المجهول في المؤخّرة.

هتفتُ قائلاً: عزيزي هولمز!

- لقد ميّزت بالأمس أثر كل شخص عن الآخر، ولذلك فلست أشكّ في تركيبة آثار الأقدام. حسناً، لقد صعدوا عندئذ إلى غرفة السيد بلسنغتون وتمكّنوا باستخدام سلك من فتح الباب الذي وجدوه مغلَقاً بإحكام، فحتى دون عدسة

ستلاحظ الخدوش على هذه الجهة وستعرف أين تمّ الضغط لخلع الباب. لا بدّ أن الإجراء الأول بعد دخولهم الغرفة كان تكميم السيد بلسنغتون الذي ربما كان نائماً، أو لعل الرعب شلّه فلم يستطع الصراخ، وحتى لو أسعفه الوقت ليصرخ فربما لم تكن صرخته لتُسمع لأن هذه الجدران سميكة. من الواضح أنهم قد أجرَوا بعض المشاورات بعد أن قاموا بتكميمه، ومن المحتمَل أن يكون شيئاً له طبيعة الإجراء القضائي. ولا بد أن الأمر استمرّ لبعض الوقت، وفي تلك الأثناء قاموا بتدخين اللفائف، فقد جلس العجوز على مقعد الخيزران وكان هو من استخدم المِبسم، وجلس الشاب



W. H. Hyde 1893 — رسم و هـ هايد ١٨٩٣

هناك حيث سقط رماد لفافته على مقدّمة الأدراج، أما الثالث فقد ذرع المكان ذهاباً وإياباً. وقد جلس بلسنغتون في سريره منتصباً، وإن كنت لا أستطيع التوثق من هذا الأمر تماماً.

حسناً، لقد انتهى الأمر بأن شنقوا بلسنغتون. وكانوا قد رتّبوا الأمر مسبقاً، حتى لأظنّ أنهم أحضروا معهم نوعاً من البكرة أو كتلة خشبية ليستخدموها مثل المشنقة، وكان المفكِ والمسامير لتركيبها كما أعتقد، ولكنهم وجدوا الخُطّاف فوفّر عليهم المشقة. وبعد أن انتهوا من عملهم أغلق شريكهم الباب وراءهم بالمزلاج.

بذلك ختم هولمز شرحَ أحداث الليلة السابقة، وقد استمعنا جميعاً -بانتباه عميق- إلى هذه التفصيلات التي استنتجها من علامات غير ملحوظة ودقيقة لدرجة أنه حين وضّحها لنا استطعنا تتبُّع تحليله المنطقي بصعوبة. ثم لم يلبث المفتش أن أسرع ليبحث عن البوّاب، أما أنا وهولمز فقد عدنا إلى مسكننا في شارع بيكر لتناول الإفطار.

قال هولمز حين انتهينا من وجبتنا: سأعود

عند الثالثة، وسيكون كل من المفتش والطبيب هنا في انتظاري في ذلك الوقت، وأتمنى أن أستطيع توضيح أي غموض ما زال يشوب القضية في ذلك الحين.

* * *

حضر ضيفانا في الموعد المحدَّد ولكن صديقي لم يحضر حتى الرابعة، واستطعت أن أرى من ملامحه -حين دخل- أن الأمور قد سارت على خير ما يرام.

سأل هولمز: هل من أخبار جديدة أيها المفتش؟

- لقد قبضنا على الصبي.

- ممتاز، وأنا نلت من الرجال.

صحنا نحن الثلاثة: نلت منهم؟!

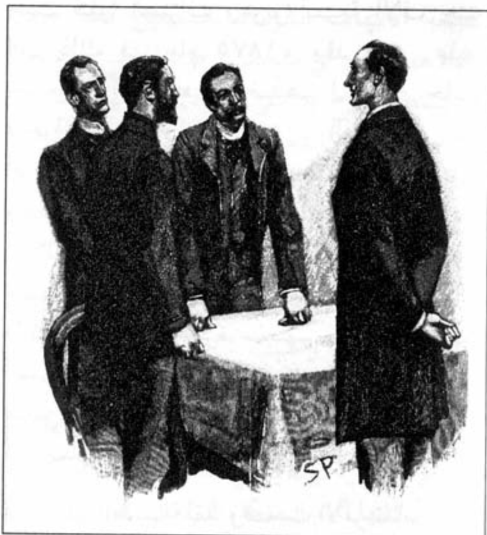
- حسناً، لقد عرفت هويتهم على الأقل؛ فهذا المدعوّ بلسنغتون معروف في المركز الرئيسي للشرطة كما توقعت، وكذلك مهاجموه، وأسماؤهم هي بيدل وهيوارد وموفات.

صاح المفتش: إنها عصابة وُرْثنْغدون لسرقة المصارف.

قال هولمز: تماماً.

- لا بد إذن أن يكون بلسنغتون هو سوتن؟

قال هولمز: بالضبط.



رسم سدني باجيت ١٨٩٣ Sydney Paget 1893

قال المفتش: يا إلهي! هذا يوضّح الأمر تماماً.

تبادلت النظرات أنا وتريفليان في حيرة، فقال هولمز: لا بدّ أنكم تذكرون قضية ورثنغدون الهائلة لسرقة المصارف، وقد اشترك فيها خمسة رجال، هؤلاء الأربعة ومعهم خامس يُدعى كارترايت؛ حيث قتلوا الصرّاف وهربوا بسبعة آلاف جنيه. كان ذلك في عام ١٨٧٥، وقد قُبض عليهم جميعاً، ولكن الدليل ضدّهم لم يكن حاسماً فتحول بلسنغتون (أو سوتن، الذي كان أسوأ أفراد العصابة) إلى مخبر واعترف بجرم أصحابه، وبفضل اعترافاته شُنق كارترايت وحُكم على الثلاثة الآخرين بالسجن خمسة عشر عاماً لكل منهم. وعندما أُطلق سراحهم منذ بضعة أيام (وكان ذلك قبل انقضاء فترة سجنهم بسنوات) كرّسوا أنفسهم لتعقّب الخائن والانتقام منه، وقد حاولوا مرتين ثم نجحوا في المرة الثالثة. هل يوجَد شيء آخر يمكنني شرحه يا دكتور تريفليان؟

قال الطبيب: لقد وضّحت الأمر تماماً. لا بد أن اليوم الذي هاج فيه هو اليوم الذي رأى فيه خبر

إطلاق سراحهم في الصحف.

- تماماً، ولم يكن حديثه عن السرقة سوى غطاء.

- ولكن لماذا لم يستطع إخبارك بهذا كله؟

- حسناً يا سيدي العزيز، بما أنه يعرف الطبيعة الانتقامية لشركائه السابقين فقد حاول إخفاء هويته عن أي شخص، فقد كان سرّه مخجلاً ولم يستطع البوح به على أية حال. وبالرغم من أنه كان حقيراً فقد كان ما يزال تحت حماية القانون، لكن سيف العدالة كان أبلغ في الانتقام.

* * *

كانت تلك هي الظروف الغريبة التي ارتبطت بالمريض المقيم وطبيب شارع بروك. ومنذ تلك الليلة لم تستطع الشرطة الوصول إلى القَتَلة الثلاثة، حتى غلب الظنّ أنهم كانوا من بين ركّاب الباخرة المشؤومة «نورا كرينا» التي فُقدت منذ عدة سنوات مع كل ركّابها أمام الساحل البرتغالي على بعد عدّة فراسخ من شمال أوبرتو. وهكذا بقي لغز شارع

بروك -كما صار يُسمّى- دون نشر تفصيلاته الكاملة حتى الآن.

* * *

-تمّت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا
(٢) قضية هوية
(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
(٤) لغز وادي بوسكومب
(٥) بذور البرتقال الخمس
(٦) ذو الشّفة الملتوية
(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء
(٨) لغز العصابة الرقطاء
(٩) مغامرة إبهام المهندس
(١٠) مغامرة النبيل الأعزب
(١١) مغامرة تاج الزمرّد
(١٢) منزل الأشجار النحاسية